مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

جذور اللسانيات التداولية في التراث التفسيري
The roots of pragmatic linguistics in exegetic heritage

أ. شفيقة طوبال
Chafikatoubal18@gmail.com
جامعة محمد الصديق بن يحي – جيجل
د. ليلى لعوير
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

تاريخ الإرسال: 26_05_2019 **تاريخ القبول:** 04_04_2020

الملخـــص:

يطمح هذا البحث إلى الكشف عن البعد اللساني التداولي في الممارسة التراثية العربية الإسلامية وبالتحديد عند علماء التفسير بنوعيه التفسير بالنقل، والتفسير بالعقل. وقد توسلت بالمنهج الوصفي لاستكشاف وتلخيص موضوع البحث، ثم تحليل بعض النماذج وتشخيصها من أجل إثبات التواشج المعرفي بين علم التفسير واللسانيات التداولية. وقد خلص هذا البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات لعلّ أبرزها حضور نظرية الفعل الكلامي والنظرية الحجاجية وعناصر السياق، وهي من المفاهيم الكبرى للتداولية الغربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: التداولية، علم التفسير، السياق، أفعال الكلام، تقنيات الحجاج.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

Abstract:

This research aspires to unveil the linguistic dimension of pragmatics in the Arab-Islamic heritage practice, specifically in the realm of exegesis; that's interpretation by transcription and interpretation by reasoning. The descriptive approach was sought by exploring and summarizing the subject, then analyzing and diagnosing some of the models in order to prove the cognitive overlap between the science of interpretation and pragmatics.

This research has perhaps reached numerous conclusions, yet the most prominent one is the verbal action theory, the argumentative theory and the elements of context, which represent the major concepts of Western Modern Pragmatics.

Keywords: pragmatics, exegesis, context, acts of speech, argumentation techniques.

المقدمـــة:

يشكّل الخطاب التفسيريّ جزءاً ضخما من أجزاء التراث العربي الإسلامي، وقد أُحيط بهالة من الإجلال بلغت حدّ القداسة عند بعضهم، وذلك لكونه صنفا من الخطاب الدينيّ الشّرعيّ، الذي اتّخذ من القرآن الكريم موضوعاً له.

إنّ هذا الارتباط بالقرآن الكريم وهو كلام الله المعجز، المنّزل على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام، المنقول إلينا بالتواتر، والمتعبّد بتلاوته، كان سببا مباشراً في إحاطة علم التفسير بمجموعة من الضوابط والشّروط، «فموضُوعه ألفاظُ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه»[1]. ولا شكّ أنّ البحث عن المعاني

[1]– محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984م،ج1، ص 12.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

واستنباط الأحكام الشّرعيّة يتطلب الارتكاز على مجموعة من الرؤى النّظرية والمنهجية والمعرفية، كون علم التفسير علما مستمدا «من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ومن أخبار العرب وأصول الفقه، وعلم الكلام وعلم القراءات»[1].

وإذا كانت التّداولية هي علم جديد للتّواصل، يدرس الظواهر اللغوية في الاستعمال، ويتميز بطبيعته الإنجازية، فالقول هو الفعل، ويهدف إلى كشف المعاني وتحديد مقاصدها، فإنّ الخطاب التفسيري «ينخرط من هذه الزوايا في مقولات التّواصل والحوار والمعنى والتأويل، يضاف إلى هذا أنّ العقيدة الإسلامية عقيدة سلوكية»[2].

من هذا المنطلق يمكن طرح التّساؤلات الآتية: ما مدى حضور المفاهيم الكبرى للّسانيات التّداولية في مدونات التفسير؟ وهل يمكن التّأسيس لتداولية عربية البذور والجذور من خلال عناية هؤلاء العلماء بالسياق وأغراض الخبر والإنشاء، وأساليب الحجاج؟

إنّ ما يمكن افتراضه أنّ الخطاب التفسيري غنيّ إلى حدّ كبير بالقيم التّداولية، لأن الغرض الأساسي من خطابهم هو القبض على المعنى في السياق، ومحاولة تحديد المقصديّة منه. وللإجابة عن التّساؤلات السّابقة والتّأكّد من صحّة ما تمّ افتراضه، سأحاول في هذا البحث إبراز ذلك التواشج المعرفي بين الدرس التداولي بمختلف مداخله، وبين الخطاب التفسيري بنوعيه؛ التفسير بالنقل، والتفسير بالرأي، وأرى أنّ الكشف عن هذا التعالق والتواشج يحتاج إلى وقفة منهجية مع بعض مفاهيم اللسانيات التداولية، ومصطلحات علم التفسير.

[1]– المرجع نفسه، ص 18.

[2]– بومنقاش الرحموني: الضوابط التداولية للنص الديني – التفسير أنموذجا – مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، المغرب د.ط، د. س، ص 6.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

1/ تعريف التداولية:

انتهى الاتّجاه الشّكليّ في الدّراسات اللغويّة بشقّيه البنيويّ والتّوليديّ التّحويليّ إلى طريق مسدود لأنّه قصر اهتمامه على دراسة النّظام اللغويّ معزولا عن سياقه الخارجي. ورغم عناية "نعوم تشومشكي" بالمكوّن الدلالي ظلّ البحث اللغويّ بلا معنى، طالما أنّه عجز عن معالجة مشكل المعنى.

في هذا السياق ظهرت مجموعة من الدّراسات تتّفق كلّها حول إيلاء الأهميّة للسياقات الاجتماعية في دراسة اللغة، ومنها اللسانيات التداولية، «وهي التّسمية التي اختارها لأوّل مرة "طه عبد الرحمن" سنة 1970م لتقابل المصطلح الإنجليزي "pragmatics" والمصطلح الفرنسي "pragmatique"، وقد حظيت بالإجماع والتداول.» [1]

ويدلّ معنى التّداولية في جذرها العربي على التّحول والتّداول والانتقال من حال إلى حال، بينما يعود أصلها الأجنبي إلى الكلمة اللاتنية "pragma" الذي يعني الفعل أو العمل"action"[2]، وفي الاصطلاح فإنّ "pragmatics" يعود بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي "تشارل موريس" charles morris" الذي استخدمه سنة 1938م،

[1] – إدريس مقبول: الأسس الإبستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سبويه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2006م، ص262.

[2] – ينظر: شفيقة طوبال، استراتيجيات الخطاب في القرآن الكريم، مقاربة تداولية في خطاب أولي العزم من الرسل، رسالة ماجستير، تخصص: لسانيات عامة (مخطوط)، إشراف: عيسى لحيلح، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق بن يحيى، جيجل، الجزائر، 2016م، ص14.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

وقد عرّفه أنّه العلم الذي يهتّم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها[1]. وعليه فالتّداولية تدرس المعنى الذي يقصده المتكلّم في سياق معين، وتهتم بكيفية إيصال أكثر ممّا يقال ضمن مجالاتها الأربع: الإشاريات، الافتراض المسبق، الاستلزام الحواري، وأفعال الكلام[2]، و لم يعتد بالدرس التداولي إلاّ بعد تلك البحوث الرائدة التي قدّمها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين لمدرسة أكسفورد وهم "جون أوستين" و"جون سيرل" و"بول غرايس"، وذلك في النصف الثاني من القرن العشرين. وهي بحوث ذات مرجعية فلسفية، أذكى جذوتها تيار الفلسفة التحليلية وتحديدا اتجاه فلسفة اللغة العادية.[3]

2/ التفسير في اللغة:

[1] – ينظر: محمد أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، جامعة الأسكندرية، مصر، د ط، 2002م،ص9.

[2] – ينظر: جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص ص20–27.

[3] – الفلسفة التحليلية فلسفة جديدة اتخذت من التحليل منهجا جديدا، حيث أعادت صياغة الإشكالات الفلسفية على أساس علمي بعكس الفلسفة الكلاسيكية التي ارتكزت على المنهج الميتافيزيقي. وقد ألحّ أصحاب هذا الاتجاه على أن أول مهام الفلسفة البحث عن في اللغة وتوضيحها من أجل فهم علاقتنا بالعالم وبالكائنات البشرية. **للمزيد من التوسع ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.** أما فلسفة اللغة العادية فهي تيار من تيارات الفلسفة التحليلية أسسها الفيلسوف "لودفينغ فيتغنشتاين" إذ يعتقد أنّ اللغة هي المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق الفلسفة، وهي اتجاه يدرس اللغة اليومية كما يتكلمها الشخص العادي. **للمزيد من التوسع ينظر: صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،ط1، 1993م،صص 21–30.**

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

جاء في لسان العرب، الفَسْر: البيان، فَسَر الشّيء يُفْسِرُه بالكسر، ويُفْسُرُه بالضم، فَسْراً، وفَسَّرَه أبانه والتّفسْيرُ مثله»[1] ، وفي الإتقان يقول السيوطي: «التفسير تفعيل مِن الفَسْرِ وهو البيانُ، والكشف، ويُقال مقلوب السِّفر، تقول أسفر الصُّبح إذا أضاء»[2]، والتفسير في اللغة عند الذهبي: «هو الإيضاح والتبيين وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف»[3]، أما عند الشيخ "ابن عاشور" فقد جاء في مقدمة تفسيره "التحرير والتنوير": «التفسير مصدر فسّر بالتخفيف (من بابي نصر وضرب) الذي مصدره الفَسْر، وكلاهما فعل متعدٍ، فالتصنيف ليس للتعدية، والفَسْرُ الإبانة والكشف لمدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسِّر عند السامع»[4].

من خلال هذه التعاريف يتّضح أنَّ مادة فسر ومشتقاتها تدور عموما حول الإبانة والكشف والإيضاح والتبيين، وتختص بالكشف عن مدلول كلام أو لفظ كما أوضح "ابن عاشور"، وهو الاختصاص نفسه الذي انطلقت منه التداولية، فهي تدرس كل جوانب المعنى وجوانب السياق، وتسعى للكشف عن علاقة العلامة اللّسانية بمستعمليها، وبظروف استعمالها.

3/ التفسير في الاصطلاح:

[1] – ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف ، مصر، القاهرة، د ط ، د س، مادة (فسر).

[2] – جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ، 2008م، ج2، ص 758.

[3] – محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط7، ج1، 2000م، ص 12.

[4] – ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج1، ص 10.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

جاء في برهان الزركشي: «التفسير علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحِكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»[1]. وفي الإتقان نقل "السيوطي" عن "أبي حيان": «التفسير علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها»[2]، وقال بعضهم: «التفسير في الاصطلاح علم نزول الآيات وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم تركيب مكّيها ومدنيّها، ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها، وخاصِّها وعامها، ومطلقها ومقيّدها ومجملها ومفسِّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها وأمرها ونهيها، وعِبَرها وأمثالها»[3].

ويرى الذهبي بعدما عرض مجموعة من أقوال العلماء بأنّ التّفسير «هو علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد»[4]. أمّا "ابن عاشور" فقد عرّفه بأنّه "العلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسُّع"[5].

إنّ ما يمكن استنتاجه من خلال آراء هؤلاء العلماء حول مفهوم التفسير في الاصطلاح ما يلي:

[1]– بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، د. ط د. س، ج1، ص 13.

[2]– السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 759.

[3]– المرجع نفسه، ج1، ص ن.

[4]– الذهبي: التفسير والمفسرون، ج1، ص 14.

[5]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج1، ص 11.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

✓ أجمع هؤلاء على أنّ مدار التفسير البحث عن مراد الله تعالى، وذلك من خلال بيان مدلولات ألفاظه ومعانيه.

✓ يحتاج الكشف عن المعنى المراد من كلام الله تعالى إلى التوسل بمجموعة من العلوم الشرعية وعلوم العربية وغيرها إنْ قليل أو كثير.

✓ ركزّ بعض العلماء على أهمية علم أصول الفقه لتفسير كلام الله تعالى، وبيان معانيه، وذلك من منطلق الغاية القصوى لديهم، وهي استنباط الأحكام الشرعية.

✓ إنّ ربط البحث عن المعنى بالغاية والمقصدية هي النقطة التي يتقاطع فيها هذا العلم الجليل مع اللّسانيات التداولية كونها أداء عمليا لغرض معين، «فالبراغما تدل على الفعل، والحركة، وهو مبدأ يُحدِّد قيمة الصِّدق بفائدته العلمية»[1].

وارتباط علم التفسير ببيان مراد الله تعالى في كتابه الحكيم دفع بعض العلماء إلى القول بأنّ «تعلّم التفسير واجب»[2] لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ص: ٢٩

وقد كان التأويل أحد المصطلحات الشائكة بحيث تداخل مفهومه مع التفسير، فاختلف العلماء بشأنهما، فرأى بعضهم أن التفسير أهم من التأويل، وأكثر استعمال التفسير في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني، ورأى البعض الآخر أن التفسير

[1] – م روزنتال، ب يودين: الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطبيعة، بيروت، لبنان، ط1، 1974م، ص217.

[2] – محمد صالح العثيمين: أصول التفسير، المكتبة الإسلامية، عين الشمس المشرقية، ط1، 2001م، ص93.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

إخبار عن دليل المراد، بينما التأويل إخبار عن حقيقة المراد، ومن العلماء من رأى التفسير مقصور على الإتباع، والسّماع، والتأويل مقصور على الاستنباط[1].

ولاشكّ أنّ أغلب العلماء يميلون إلى اختصاص التفسير بالمعنى الظاهر، واختصاص التأويل بالمتشابه، وما يرجّح هذا الرأي المعنى اللغوي لمصطلح التأويل، «فهو مأخوذ من الأوّل وهو الرجوع»[2]، ولذلك يعتقد الشيخ "ابن عاشور" أنَّ التأويل هو إرجاع الكلام إلى الغاية المقصودة منه، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه.[3]

وتبقى الغاية الأسمى التي يجب أن يسعى إليها مفسّر القرآن، هو تبيان مراد الله تعالى من خطابه إلى الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض لتعميرها بالعمل الصالح وفق الشرائع السماوية.

4/طرق التفسير ومناهج المفسرين:

لقد اعتنى المسلمون عبر القرون، وإلى يومنا هذا بالقرآن الكريم تلاوة وحفظا ودرسا، فتدبّروا ألفاظه وآياته، وفسّروا معانيه وموضوعاته، وحاولوا الوقوف على مقاصده وأغراضه. ولا بدع في ذلك، فهو أسس حياتهم، وقوامها ومصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، أحقَّ الحق، وأبطل الباطل، ورسم الحدود، وكشف عن الوعود، وبيّن الجزاء للبشرية جمعاء. ومن هذا المنطلق تعدّدت طرق التعامل مع القرآن الكريم تفسيراً وتأويلاً وتنوّعت مناهج البحث فيه رغبة في الوصول إلى كنه معانيه، وليس ذلك بالأمر الهين، فتحقيق الكمال من المحال، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

[1] – ينظر: السيوطي: الإتقان، ج1، ص 759.
[2] – الذهبي: التفسير والمفسرون، ج1، ص 14.
[3] – ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج1، ص 16.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

لقمان: ٧٢ ، وقال أيضا:﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ الكهف: ٩٠١

وعليه فالتفسير له أقسام عِدّة، وكل قسم مبني على اعتبار، ويكون هذا الاعتبار بالنظر إلى جهة من جهات التفسير، وهذه الاعتبارات هي:[1]

– اعتبار معرفة النّاس له، واعتبار طرق الوصول إليه، واعتبار أساليبه، واعتبار اتجاهات المفسرين فيه.

فالاعتبار الأول وهو تقسيم "ابن عباس" يضم أربعة أوجه:[2]

– وجه تعرفه العرب من كلامها، ووجه لا يعذر أحد بجهله، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلاّ الله. أما الاعتبار الثاني فيندرج تحته التفسير عن طريق الأثر؛ وهو التفسير بالمأثور، والتفسير عن طريق الاجتهاد وهو التفسير بالرأي.[3]

بينما تشعّبت أقسام التفسير باعتبار أساليبه ومنها: التفسير التحليلي، والإجمالي، والمقارن، والموضوعي وهو باعتبار اتجاهات المفسرين فيه: سلفي أو اعتزالي أو أشعري أو شيعي، أو صوفي، وغيرها من الاتجاهات المذهبية.[4]

في حين نجد في بطون الكتب تصنيفات أخرى لأقسام التفسير، وهي باعتبار العلم الذي غلب عليه ومنها: الاتجاه البلاغي والبياني والنحوي واللغوي والعلمي والأدبي الاجتماعي [1] ، ولكل قسم من هذه الأقسام طريقة يتكئ عليها، ومن هذه الطرق:[2]

[1] – ساعد سليمان طيار: فصول في أصول التفسير، دار النشر الدولي، الرياض، ط1، 1993م، ص 16.

[2] – ينظر: ساعد سليمان طيار: فصول في أصول التفسير، ص 19.

[3] – ينظر: المرجع نفسه، ص 19.

[4] – نفسه، ص 21.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

– تفسير القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالسنة، تفسير القرآن بأقوال الصحابة، تفسير القرآن بأقوال التابعين، تفسير القرآن باللغة، تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد.

من خلال ما سبق يتّضح أنَّ أبرز تصنيف للخطاب التفسيري منذ القديم هو التصنيف باعتبار طرق الوصول إليه، وهما نوعان اثنان: – تفسير بالمأثور أو النقل أو الرواية، وتفسير بالرأي أو العقل أو الدراية، ثم يأتي تحت كل نوع منهج التفسير وطريقة الوصول إليه.

والحقيقة أننا نجد الكثير من الطرق المتداخلة بين هذين النوعين؛ فسواء أكان التفسير بالنقل أو بالعقل لم يستغن هؤلاء المفسرين عن التفسير باللغة والبيان والنحو والإعراب، أو عن التفسير بالتراكيب ودلالاتها وذلك للخاصية التي تميّز بها القرآن الكريم، وقد نزل بلسان عربي مبين.

وهذه الحقيقة الظاهرة التي يمكن لأي باحث الوقوف عليها في الخطاب التفسيري قديمه وحديثه تدعمها حقيقة أخرى، وهي مدار هذا البحث، وتتمثل في الجذور العميقة للسانيات التداولية في مصنفات المفسرين، وقد أدرك هؤلاء العلماء أن المعنى والقصد لا يتجليّان إلاّ ضمن اللغة، وما يحيط بها من ظروف الاستعمال وحال السامعين، وأسباب النزول ومقامات التلفظ.

5/ البعد التداولي في التراث التفسيري

أ/ من خلال الاعتداد بالسياق:

[1]– نفسه، ص ن.

[2] – نفسه، ص 22.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

تنظر التداولية إلى القول المنجز في التخاطب على أنّه فعل دال، وتهتم بظروف الاستعمال وسياقات التخاطب، وقد «عدّت الخطاب إنتاجاً لغويا منظوراً إليه في علاقته بظروفه المقامية، وبالوظيفة الاتصالية التي يؤديها»[1] .

من هذا المنظور تتجلى الرؤية التداولية في التراث التفسيري من خلال عناية المفسرين بالسياق اللغوي كدراسة الوقف والابتداء والوصل والفصل، وكذا عنايتهم بالسياق غير اللغوي، كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني وغيرها من العناصر الخارجية. فقد «اعتنوا بأسباب النزول في كتبهم وأفردوا فيه تصانيف، وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ، وليس كذلك بل له فوائد ومنها وجه الحكمة الباعثة عن تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السّبب، ومنها الوقوف على المعنى»[2]. كما أنّ معرفة أسباب النزول «تفيد في دفع الإشكال من الآيات»[3]. ومن جهة أخرى فإنّ «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فالعلم بالسّبب، يورث العلم بالمسبّب»[4].

لذلك فالنظر في جهود المفسرين يكشف عن «استنادهم إلى أسباب النزول والعادات الاجتماعية وقوانين العرب في كلامها، وقواعد العربية المجرّدة بمقولات نظرية

[1] – أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللّسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب ط1، 2001م، ص 276.

[2] – الزركشي: البرهان، ج1، ص 22.

[3] – عماد علي عبد السميع: التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الأمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، د. ط، 2006م، ص 93.

[4] – تقي الدين أحمد عبد الحليم بن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، كلية الشريعة، جامعة دمشق، ط1، 1972م، ص 47.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

وأخبار الأمم السالفة، وأقوال الرسول الكريم وأفعاله. ومن حيث الزمان والمكان أخذوا مسألة المكي والمدني والناسخ والمنسوخ»[1]. ومن نماذج ذلك ما جاء في تفسير الطبري للآية الأولى من سورة الأنفال، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾الأنفال:١، فقد استعان "الطبري" بالسياق اللغوي والسياق غير اللغوي على السواء، من أجل الوصول إلى كنه المعنى فذكر بادئ ذي بدء اختلاف العلماء في الأنفال، فمنهم من قال الأنفال: الغنائم، ومنهم من قال: الأنفال: السّرايا، ومنهم من قال: الأنفال: الفرس والدّرع والرمح[2]، ثم عرض رأيه بالقول: «وأوْلى هذه الأقوال بالصواب في معنى الأنفال قول من قال هي زيادات»[3]. وقد استند الطبري إلى سنن العرب في أقوالهم «فالنّفل في كلام العرب إنما هو الزيادة على الشيء»[4]، ثم دعّم موقفه هذا عن طريق الشاهد الشعري فقال «والأنفال جمع نَفْل، ومنه قول لبيد بن ربيعة:

إنّ تقوى رَبِّنا خيرُ نَفْلٍ وبإذن الله رَيْثي وعَجَلْ»[5]

[1] – محمود حسين الجاسم: أثر السياق الخارجي في توجيه الدلالة التركيبية لدى مفسري القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الثاني عشر، ربيع الآخر، 1435هـ – 2013م، ص 21.

[2] – ينظر: محمد بن جرير الطبري: جامع البيان على تأويل آي القرآن، تح: عبد الله عبد المحسن تركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر ط1، 2001م، ج11، ص ص8– 10.

[3] – المرجع نفسه: ج11، ص 10.

[4] – نفسه، ج11، ص ن.

[5] – ينظر: نفسه، ج11، ص 11.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

أما الرؤية التداولية عند "الطبري" فتتجلى في التعامل مع الخطاب القرآني من خلال انتقاله من دراسة اللغة؛ أي الاهتمام بالسياق اللغوي، إلى دراسة استعمال اللغة؛ أي الاهتمام بالسياق غير اللغوي، وذلك من خلال عنايته بأسباب نزول هذه الآية إذ جاء في تفسيره: «واختلف في السّبب الذي من أجله نزلت هذه الآية فقال بعضهم نزلت في غنائم بدر، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان نفّل أقواما على بلاء، فأبلى أقوام وتخلف أخرون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختلفوا فيها بعد انقضاء الحرب، فأنزل الله هذه الآية على رسوله يُعلمهم أنّ ما فعل فيها رسول الله فماضٍ وجائز»[1].

كما اعتنى "الشنقيطي" من جهته بأسباب النزول، ومعرفة المكي والمدني للوقوف على المعنى من كلام الله تعالى، ومثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ الـنحل: ٣٨، فبعد أن حاول إضاءة المعنى بالقرآن نقل ما رُوي عن مجاهد[2] أنَّ سبب نزول هذه الآية أنَّ أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله، فقرأ عليه رسول الله قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا...﴾ الـنحل: ٠٨ ، قال الأعرابي: نعم، قال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ الـنحل: ٠٨، قال الأعرابي نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي: نعم حتى بلغ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴾ الـنحل: ١٨ ، فولى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ النحل: ٨٣

[1] – نفسه، ج11، ص 12.

[2] – محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، د ط، دس، ج3، ص394.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

كما تبرز الرؤية التداولية عند "الشنقيطي" من خلال عنايته أيضا بالمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، إذ يشرع في إضاءة معنى القرآن الكريم أولاً، ثم ما ينفك يبحث عن إضاءات أخرى من خلال السياق الخارجي.

وفي التراث التفسيري الحديث أيضا، نجد هذه العناية بالظروف الخارجية للخطاب، ويظهر ذلك جليا في تفسير التحرير والتنوير. ومن المعلوم أن "ابن عاشور" أولى اهتماما بالغاً بعلوم العربية من معجم ونحو وصرف وتركيب ونظم وبلاغة من أجل تخريج معاني الآيات، والوقوف على مقاصد الشارع الحكيم، لكن المستوى الدلالي لا يكشف دائما عن المراد، وقد تنبّه الشيخ لذلك، فطفق يحرر المعنى وينوّره على المستوى التداولي بدراسة اللغة في الاستعمال. ومن أمثلة ما جاء مجسدا لرؤيته التداولية طريقة تفسيره للآية الأولى من سورة المجادلة، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ **المجادلة: ١** .

فقد ارتكز الخطاب التفسيري على البحث في سبب نزول هذه الآية، فرَوى "ابن عاشور" قصة المرأة خولة أو خويلة أو جميلة بنت مالك التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فجاءت رسول الله وذكرت له ذلك، فقال: حُرِّمتِ عليه، فأخذت تُجادله، وتشكو إلى الله، فأنزل الله هذه الآيات.[1]

واستهلال "ابن عاشور" التفسير بذكر سبب النزول، ثم الانتقال إلى السياق اللغوي بتحليل مستويات اللغة يدّل على وعيه بأهمية السياق غير اللغوي في الكشف عن معنى الخطاب ومقاصده. وقد يستهل تفسيره للآية القرآنية بالوقوف على معاني الألفاظ وعلاقتها ببعضها، والنظر في وجوه الحقيقة والمجاز وغيرها من العناية بالسياق اللغوي،

[1]– ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج28، ص 7.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

دون أن يهمل الوقوف على ملابسات النزول وأسبابه، وذلك في مثل تفسيره للآية الثانية من سورة النساء، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ ﴾ **الـ نساء:٢،** فبعد أن أحاط بلفظتي الإيتاء واليتامى، وأبرز وجوه الخلاف في معنى الإيتاء بين الدفع أو التعيين، وفي معنى اليتامى بين الصغار القُصّر أو من جاوز هذا الحد، عرض "ابن عاشور" أسباب نزول الآية فقال: «نزلت هذه الآية في رجل من غطفان كان له ابن أخ في حجره، فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه عمّه فنزلت هذه الآية فردّ المال لابن أخيه»[1].

وصفوة القول أنّ معنى الآية لم يتضّح حسب "ابن عاشور" إلاّ بالوقوف على حقيقة التنزيل الذي فصل في معنى الإيتاء الذي هو بمعنى حفظ أموال اليتيم ودفعها إليه عند الرشد.

ب/ من خلال الاعتداد بالأفعال الكلاميّة

لقد بات من الضروري «الأخذ بالمقومات التي تحيط بالاستعمال اللغوي؛ فالتداولية صنف من البحوث التي لا تفحص اللغة والكلام من الناحية الصوتية والدلالية والتركيبية، بل تتعدى هذا إلى محاولة دراسة السلوك اللغوي ضمن نظرية الفعل»[2]. وممَّا لاشك فيه أن الفعل المتضمن في القول أو الفعل الإنجازي هو الركيزة الأساسية التي انبنت عليها نظرية الأفعال الكلامية انطلاقا من كون هذا الفعل يرتبط بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يتأول وجوه التلفظ ليقع على المعنى.

من هذا المنظور فقد تجاوز علماؤنا بخطابهم التفسيري وظيفة النّص التواصلية إلى البحث عن متضمنات القول، وذلك لأنّ القصد من الخطاب القرآني ليس التواصل

[1] – ينظر: المرجع نفسه، ج4، 220.

[2] – بومنقاش الرحموني: الضوابط التداولية للنّص الديني، التفسير أنموذجا، ص 4.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

بقصد الإخبار وتقديم المعلومات، وإنما لغرض أساسي هو التأثير في المتلقي لتصحيح عقيدته، وتغيير سلوكه في إطار مجموعة من الأفعال الإنجازية التي تتضمن الأوامر والنوّاهي.

وعليه فنظرية الأفعال الكلامية المباشرة منها وغير المباشرة، وبقواها الحرفية والمستلزمة كانت من المفاهيم المتأصلة والعميقة الجذور في تراثنا العربي نحوا وبلاغة وفقها وتفسيرا. ولئن كان علماء أصول الفقه قد احتفوا بهذه المفاهيم احتفاء بالغاً؛ فأحسنوا استثمار جهود النحاة والبلاغيين، ووسعوا بحوثهم بحيث شملت المعاني الوظيفية برؤية تداولية تضاهي رؤية المؤسسين الغربيين المحدثين، فإن علماء التفسير قد استثمروا تلك الجهود جميعا في محاولة لبيان معاني ألفاظ القرآن الكريم ومقاصده. ولذلك لم يخل خطابهم التفسيري من تلك الآلية الإجرائية لحصر الأغراض الخفية للخبر والإنشاء.

ففي التفسير بالمأثور نجد "ابن كثير" يوضح قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ **الصافات: ٢٠ - ١٢**، فيرى أنَّ القوة الإنجازية في الآية (20) هي الندم، وفي الآية (21) هي التقريع والتوبيخ.[1] وفي قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ۝٤٣﴾ **٣٤**، رجّح "ابن كثير" الإنكار للتقريع والتوبيخ على أنّه هو المعنى المستلزم من الاستفهام في الآية القرآنية.[2]

[1] – ابن كثير القريشي: تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، 1999م مج7، ص 8.

[2] – المرجع نفسه،مج5،ص344.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

وفي سورة الحجر فَسَّر "ابن كثير" الآية الثانية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ **الحجر: ٢** فقال: «إخبار عنهم أنّهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر»[1] فالقوة الحرفية للفعل الكلامي هي الإخبار بينما القوة الإنجازية المستلزمة هي الندم. أما القوة الإنجازية المستلزمة من الآية الثالثة ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ **الحجر:٣** ، هي "تهديد لهم شديد ووعيد أكيد"[2].

واعتنى "الثعالبي" أيضا في تفسيره بالأغراض البلاغية للخبر والإنشاء من أجل القبض على المعنى وتحديد المقصدية من خطاب الشارع الحكيم فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ **٣** ، أنّه «خبرٌ في ضمنه تحذير وزجر»[3].

والمفارقة العجيبة في هذا الخطاب التفسيري "للثعالبي" هو اشتراكه في المصطلح "ضمنه" مع مصطلحات نظرية أفعال الكلام الغربية المعاصرة؛ فقد قسم "جون أوستين" الفعل الكلامي إلى ثلاث أقسام[4]:- فعل القول- فعل متضمن في القول، والقول التأثيري.

[1] – نفسه، مج4، ص 524.

[2] – نفسه، مج ن، ص 526.

[3] – أبو زيد الثعالبي المالكي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوّض، عادل أحمد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، 1418هـ، 1997م، ج2، ص 445.

[4] – خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012م، ص 78.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ الأنعام: ١٠، يرى "الثعالبي" أنّ القوة الإنجازية الحرفية المباشرة في الآية هي الإخبار، بينما تعدّدت القوى الإنجازية غير المباشرة لتدلّ على «تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بالأسوة في الرسل، وتقوية لنفسه على مُحاجَّة المشركين وإخبار يتضمن وعيد مُكذِّبيه والمستهزئين به»[1]. وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ ٤٧، يرى "الثعالبي" أنّ القوة الإنجازية المتضمنة في القول هي وعيد وتهديد.[2]

ويعجُّ التفسير بالعقل أو بالرأي من جهته بهذه الآلية الإجرائية المتمثلة في علم المعاني أو مبحث الخبر والإنشاء وهي رؤية تداولية عميقة شكلت النواة الأولى للتداولية الغربية، ومن نماذج ذلك ما جاء في كشاف "الزمخشري" في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ إبراهيم: ١٢، فقد كشف الزمخشري عن المعنى المقصود من هذه الآية فقال: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم وعتابا على استتباعهم واستغوائهم، وقولهم ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ من باب التبكيت لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم»[3]، فالإخبار حسب الزمخشري في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

[1] – أبو زيد الثعالبي: الجواهر الحسان، ج2، ص 447.

[2] – المرجع نفسه، ج2، ص 465.

[3] – الزمخشري: حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوّض، مكتبة العبيكات الرياض، السعودية، ط1، 1998م، ج3، ص 371.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ يحمل قوة إنجازية ضمنية تتمثل في التوبيخ والعتاب، أما الاستفهام فيفيد التبكيت. ويحمل النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ **إبراهيم: ٤٢** قوة إنجازية ضمنية تتمثل حسب الزمخشري في الوعيد والتهديد.

ويبرز البعد التداولي في تفسير "الفخر الرازي" أيضا من خلال عنايته بنظرية الأفعال الكلامية في تفسيره لقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ **ال بقرة:١١٢**، يقول: «اعلم أنّه ليس المقصود سل بني إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها وذلك لأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام كان عالما بتلك الأحوال؛ بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله تعالى»[1] ، فالقوة الإنجازية الحرفية هي الاستفهام، ويرى الرازي أنها ليست المقصودة من الكلام، إنما المقصود قوة إنجازية مستلزمة، وهي الزجر عن الإعراض عن دلائل الله تعالى، ثم يربط الرازي هذه الآية بما قبلها ليدلّه السياق على قوة إنجازية مستلزمة وهي الأصل من القصد الإلهي وتتمثل في التهديد. وقد بيّن هذا بقوله:»[2] «وبيان هذا الكلام أنّه تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ **ال بقرة:٨٠٢** فأمر بالإسلام ونهي عن الكفر، ثم قال: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ **ال بقرة:٩٠٢**، أي فإن أعرضتهم عن هذا التكليف، صرتم مستحقين للتهديد بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ **ال بقرة:٩٠٢**، ثمَّ بيَّن

[1] – محمد الرازي فخر الدين: تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ج6، ص 02.

[2]– المرجع نفسه، ج6، ص ص 2– 3.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

ذلك التهديد بقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ ال بقرة:٢١٠ ، ثم ثلّث ذلك التهديد بقوله ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾ ال بقرة:١١٢

إنَّ هذا التحليل للخطاب القرآني بهذه الرؤية التداولية العميقة، يكشف عن إدراك علمائنا المفسرين أن القول فعل، وأنّ المتكلم يصنع الأشياء بالكلمات، وهو في تواصل وتفاعل مع المتلقي، ثم أنّ الكشف عن مقصدية الخطاب لا يتمّ إلاّ في إطار السياق المقامي.

ومن التفاسير الحديثة التي أولت الغاية بدراسة مقاصد الكلام عن طريق البحث في الأغراض الكلامية للخبر والإنشاء تفسير التحرير والتنوير، ومما جاء فيه قول "ابن عاشور": «المقصود من هذا تحذير المشركين ثم تهديدهم»[1] وذلك في تفسيره للآية (23) من سورة يونس: ﴿...يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ يونس: ٣٢

أما افتتاح الخطاب بـــ "يا أيها الناس" لمخاطبة المشركين فالقصد منه عند "ابن عاشور" هو استصغاء أسماعهم [2]، وفي تفسيره للآية (31) من السورة نفسها ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ..... أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ يونس: ١٣ جعل ابن عاشور للفعل الكلامي "قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم" قوة مستلزمة غير مباشرة تتمثل في التقرير، وذلك من أجل «الانتقال من غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشرك وإثبات

[1] – ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج11، ص 139.
[2] – ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

توحيد الله تعالى بالإلهية»[1] . أما المقصد من هذا الانتقال من غرض إلى غرض آخر فهو الاستدلال حسب "ابن عاشور"، وقد «جاء بطريقة الاستفهام والجواب لأن ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين»[2]

واهتمام الشيخ "ابن عاشور" بالمقاصد جعله يغوص أكثر في تحرير معنى هذه الآية بقوله: «وقد نظم هذا الاستدلال على ذلك الصنع العجيب بأسلوب الأحاجي والألغاز لزيادة التعجيب منه»[3] .

وعليه فالاستفهام في بداية هذه الآية يعدّ قوة حرفية تنطوي تحتها قوى غير مباشرة وهي التقرير والاستدلال والتعجيب أو التعجب، وكلها تعدّ الغاية القصوى من هذا الخطاب الموجه إلى المشركين، فضلا عن القوة الإنجازية المتمثلة في الإنكار من قوله تعالى في ختام هذه الآية "أفلا تتقون".

وفي سورة الأنعام تتجسد الرؤية التداولية لابن عاشور بأعمق ما يكون التجسيد؛ ففي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا...﴾ **الأنعام:**١١٤، يفسر القوة الإنجازية غير المباشرة بالإنكار، فيقول: «والهمزة للاستفهام الإنكاري أي إن ظننتم ذلك، فقد ظننتم مُنكرا»[4]. كما اهتم بالمقصدية اهتماما بالغا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾**الأنعام**: ١١٤، بحيث جعل الآية فعلا كلاميا يحتمل عدة وجوه؛ فالوجه الأول احتمال أن يكون الخطاب موجها للنبي الكريم، والقوة الإنجازية المستلزمة منه هي

[1] – نفسه، ج11، ص 155.
[2] – نفسه، ص 156.
[3] – نفسه، ص 157.
[4] – نفسه، ج8، القسم الأول، ص 14.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

تأكيد الخبر، «فالامتراء المنفي هو الامتراء في أنَّ أهل الكتاب يعلمون بذلك»[1]، والوجه الثاني «يجوز أن يكون خطابا لغير معين (...) أي فلا تكوننّ – أيها السامع– من الممترين أي الشاكين في كون القرآن من عند الله»[2]. أما الوجه الثالث «فيحتمل أن يكون المخاطب الرسول ـصلى الله عليه وسلمـ والمقصود من الكلام المشركون الممترون على طريقة التعريض»[3]، ويعتقد ابن عاشور أنّ الوجه الأخير هو أحسن الوجوه.

من هذا المنطلق فتحرير المعنى بهذه الكيفية إنما يعكس وعي الشيخ "ابن عاشور" بالقصد من الكلام وهو بهذا الوعي، يكون قد سبق علماء التداولية الغربيين في اهتماماتهم بالأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة.

ج/ من خلال الاعتداد بتقنيات الحجاج

منذ القديم شغل الحجاج اهتمام الفلاسفة والمناطقة والبلاغيين، ودارسي القانون؛ فهو ترجمان للأفكار إثباتا أو نفيا، وحلقة للتواصل والتفاعل حينا، وللجدل والتخاصم حينا آخر. وكيفما كان موقف الإنسان من الحجاج قديما، فهو اليوم يشكل معولا للنصر، وآداة حادة وفاصلة في الخطاب بكل أنواعه، وهو وسيلة ضرورية في زمن العولمة وزيف الحداثة، وأوهام ما بعد الحداثة. وممّا لا شك فيه أنّ للمقاربات اللسانية بأنواعها دوراً بالغاً في انبعاث الدراسات الحجاجية، وعليه فالانبعاث الجديد والمتسارع للنظريات الحجاجية ينطلق من كون الحجاج «إشارة إلى الشك وهو مجال للشبيه والمحتمل، وميدان

[1] – نفسه، ج نفسه، ص 17.
[2] – نفسه، ج نفسه، ص 18.
[3] – نفسه، ج نفسه، ص ن.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

لتفاعل الذوات والدفاع عن القضايا، حيث يقوم على تبريرات وعناصر عقلية منطقية»[1].

وعرف النصف الثاني من القرن العشرين إعادة تأسيس هذه الدراسات «انطلاقا من أعمال " برلمان" و"تيتيكا"، و"س. تولمن"، و"كل.همبلات"، وكذلك أعمال"ج س غرايز"، و"أ. ديكرو" في السبعينيات»[2]. وموضوع النظريات الحجاجية في التعريف الكلاسيكي الجديد الذي وضعه "برلمان" و"تيتيكا" هو «دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من الحصول على موافقة العقول على الأطروحات التي تعرض عليها أو دعم موافقتها» [3].

فالحجاج إذن أو البلاغة الجديدة تتمحور أساسا حول «تحليل تقنيات الحجاج، وهذه التقنيات يتم بسطها على محورين كبيرين، من جهة محور الخطاب ذاته، ومن جهة أخرى محور تأثير هذا الخطاب على المتلقي»[4]. وانطلاقا من هذه النقطة صنف «برلمان تقنيات الحجاج إلى أربع تقنيات كبيرة؛ الأولى سماها الحجج شبه المنطقية، والاثنان التاليتان سماهما تقنيات الربط، والتقنية الرابعة تنتمي إلى تقنيات الفصل»[5]. أمّا عند

[1] – محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1 2005م، ص 08.

[2]– باتريك شارودو – دومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، تونس، د ط، 2008م،ص 68.

[3] – باتريك شارودو – دومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ص 68.

[4] – فليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، ط1، 1432هـ، 2011م، ص 41.

[5] – جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة الباحثين من الجامعات التونسية، دار سيناترا، تونس، د– ط، 2010م، ص 83.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

"أزقولد ديكرو" فيعدّ السلم الحجاجي من أهم نتائج أبحاثه التي تعلقت بما يسمى بالتداولية المدمجة، و«هي نظرية دلالية تدمج في الشفرة اللغوية (اللسان بالمعنى السوسيري) مظاهرة عملية القول»[1].

ولعلّ من أهم مميزات هذه النظرية «أن دراسة معنى القول يشتمل على جانبين هما دلالة الجملة (المجال اللغوي) ومعنى القول (المجال البلاغي التداولي)، كما أن العلاقة بين الأقوال علاقة حجاجية لا استنتاجية»[2] ولذلك فالهدف الأساسي لهذه النظرية هو الوصول إلى تحقيق أهداف حجاجية، وتبيّين أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية.

بناء على ما سبق فالتقنيات الحجاجية سواء أكانت أدوات لغوية أو آليات بلاغية أو شبه منطقية تعدّ من أبرز الإجراءات التي تأسست عليها الممارسة التراثية العربية الإسلامية. ولاسيما عند علماء الكلام وأصول الفقه والتفسير. وإذا كان الخطاب القرآني لا يخلو من استراتيجيات الإقناع والتأثير، فإنّ الخطاب التفسيري سار في المنحى نفسه متكئا على مختلف التقنيات الحجاجية.

ومن نماذج ذلك التفاسير التي اعتمدت على الرواية أو النقل مثل تفسير "ابن كثير"، وتفسير" السيوطي"، و"القرطبي"، و"البغوي"، و"ابن عطية"، و"الثعلبي"، حيث تتجلى الرؤية الحجاجية من خلال توظيف الأدوات اللغوية كالاستشهاد بالشعر، والمسموع من كلام العرب، إذ كثيرا ما يلجأ هؤلاء إلى ذلك من أجل تدعيم خطابهم التفسيري، والتأثير في المتلقي.

[1] – ينظر: المرجع نفسه، ص ص 84– 85.

[2] – ينظر: نفسه، ص ن.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

ففي تفسير السيوطي "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" يستشهد بالحديث النبوي الشريف عقب تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ **ال بقرة:٩٨١** فيقول: «وأخرج الحاكم وصحّحه، والبيهقي في سننه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فعُدّوا ثلاثين يوما»[1]. كما يستشهد بالشعر فيقول: «وأخرج الطستي عن ابن عباس، أنّ نافع بن الأزرق، قال له: أخبرني عن قوله: "مواقيت للناس"، قال: في عدة نسائهم ومحل دينهم، وشروط الناس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر وهو يقول:

والشمس تجري على وقتٍ مُسخَّرةً إذا قضت سفرا استقبلت سفرا»[2]

أما "ابن عطية" في تفسيره "المحرر الوجيز" فقد كان يردف تفسير أغلب الآيات بشاهد شعري أو أكثر ففي قوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ **مريم: ٤٢** ، يقول «والسري من الرجال العظيم الخصال السيد، و"السري" أيضا الجدول من الماء، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية؛ فقال قتادة وابن زيد: أراد جعل تحتك عظيما من الرجال له شأن، وقال الجمهور، أشار لها إلى

[1] – جلال الدين السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تح: عبد الله بن عبد الحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ– 2003م، ص 307.
[2] – المرجع نفسه، ص 306.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

الجدول الذي كان قرب جذع النخلة»[1]. وللفصل في الدلالة المقصودة من "السري" يأتي "ابن عطية" بقول لبيد:[2]

فتوسطا عرض السري فصدعا مسجورة متجاوراً قلاّمها

وفي تفسير قوله تعالى:﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴿٥٩﴾﴾ **مريم: 59**، يشير "ابن عطية" إلى معنى "الغي" المتداول عند العرب، وهو الخسران والحصول في الورطات»[3]، ثم يدعم ذلك بقول الشاعر:[4]

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغوِ لا يعدم على الغي لائما

وبالطريقة نفسها وظف "الطبري" في تفسير "الجامع لأحكام القرآن" تقنية الاستشهاد بالشعر، ومثال ذلك إتيانه بشعر حسان:[5]

أتهجوه ولست له بندٍ فشرّ كما لخيركما الفداء

وذلك لتأكيد المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿...فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ **ال بقرة:٢٢**، أي أكفاء وأمثالا ونظراء، واحدها ندٌّ. وفي تفسير قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ **ال بقرة:٦**، يقول "القرطبي": «وأصل الكفر في كلام العرب السِّتر والتغطية، ومنه قول الشاعر: "في ليلة

[1] – ابن عطية الأندلسي: المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ – 2001م، ج4، ص 11.

[2] – المرجع نفسه، ص ن.

[3] – نفسه، ج ن، ص 22.

[4] – نفسه، ج ن، ص ن.

[5] – ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ج1،ص 347.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

كفر النجوم غَمامُها" أي سترها ومنه يسمى الليل كافرا لأنه يغطي كل شيء بسواده»[1]. وعليه فالاستشهاد يعد أبرز تقنية حجاجية في التفسير بالمأثور.

أما التفسير بالرأي فالحجاج فيه كثير ومتنوع، ومنه الحجاج عن طريق الأدوات اللغوية، والآليات البلاغية، وكذا الآليات شبه المنطقية، وأبرزها التدرج في استعمال الحجج أو ما يسمى عند "ديكرو" السلم الحجاجي. ومن نماذج ذلك ما نجده في تفسير "الفخر الرازي"، وهو واحد من العلماء الموسوعيين حيث كان فقيها وأصوليا ومتكلما وفيلسوفا وطبيبا. وقد ولع بالحجاج والجدال، فتميَّز تفسيره بالاستطراد وتصريف الأقوال والإبعاد في الجدل والنقاش فيذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها.[2]

ففي الباب الثالث من الجزء الأول لتفسيره تبرز نزعته الحجاجية، وتفكيره التداولي في التعامل مع لغة القرآن الكريم ومعانيه ومقاصده، فيأخذ في بسط مسائل عديدة في سورة الفاتحة، ويطنب في ذكر الأسرار العقلية المستنبطة منها، وذلك بتنويع التقنيات الحجاجية من تعليل واستحضار للأدلة، وتدرج في الحجج، يقول في المسألة الأولى: «اعلم أنّه تعالى لما قال (الحمد لله) فكأنّ سائلا يقول: الحمد لله مبني عن أمرين: أحدهما: وجود الإله، والثاني: كونه مستحقا للحمد، فما الدليل على وجود الإله، وما الدليل على أنّه مستحق للحمد؟»[3]، وبعد ذلك يجتهد في ترجيح المقصدية من هذه الآية فيقول: «ذكر الله تعالى ما يجري مجرى الجواب عن هذين السؤالين: فأجاب عن السؤال الأول بقوله (رب العالمين)، وأجاب عن السؤال الثاني بقوله (الرحمن الرحيم مالك يوم

[1] – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 281.
[2] – ينظر: محمد الرزاي فخر الدين: تفسير الفخر الرازي،ج1، المقدمة ، ص ص 7– 9.
[3] – المرجع نفسه: ج1، ص 185.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

الدين)»[1]. وللإقناع بطريقته العقلية في الاستنباط يفصّل الجزء الأول من المسألة الأولى إلى مسائل أخرى على سبيل التفريع والتقسيم فيقول: «كان قوله (رب العالمين) إشارة إلى الدليل الدال على وجود الإله القادر الحكيم»[2]، ثم يتدرج في الحجاج بالطريقة التي أقرّها "ديكرو" في نظرية السلالم الحجاجية حيث يرى في قوله تعالى (رب العالمين) مجموعة من اللطائف:[3]

– اللطفية الأولى: أن العالمين إشارة إلى ما سوى الله، فقوله رب العالمين إشارة إلى أن كل ما سواه فهو مفتقر إليه، محتاج في وجوده إلى إيجاده.

– اللطفية الثانية: أنّه تعالى لم يقل الحمد لله خالق العالمين، بل قال (الحمد لله رب العالمين) تنبيها على أنّ كل ما سوى الله فإنه لا يستغني عنه لا في حال حدوثه، ولا في حال بقائه.

– اللطفية الثالثة: أنّ هذه السورة مسماة أم القرآن، فوجب لكونها كالأصل، والمعدن وأن يكون غيرها كالجداول المتشعبة منه، فقوله (رب العالمين) تنبيه على أنّ كل موجود سواه فإنّه دليل على إلهيته.

وتحليل هذا التفسير المغرق في التفلسف والاستدلال العقلي لا شك أنّه يكشف عن جملة من الأمور:

✓ إنّ خطاب "الرازي" بالملفوظ "اعلم" يدل على استحضاره للعناصر السياقية من مرسل ومتلقي ورسالة، وفي ذلك قيم تداولية.

[1] – محمد الرزاي فخر الدين: تفسير الفخر الرازي، ج ن، ص ن.

[2] – نفسه، ج ن، ص 186.

[3] – ينظر: الرازي: تفسير الفخر الرازي، ج ن، ص 185– 187.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

✓ كما أنّ انتهاجه للحجاج بأنواعه المختلفة من تحليل وتقسيم واستحضار للأدلة العقلية يدل على وعيه العميق بالوظيفة الحجاجية للعناصر اللغوية وغير اللغوية.

✓ ثم إن عرضه لتلك اللطائف التي رآها في قوله تعالى (رب العالمين) يكشف عن براعته في استمالة المتلقي ودفعه إلى الإذعان والاقتناع، لأنه كان في كل لطفية يرتقي ويتدرج بحججه من حجة قوية إلى حجة أقوى منها.

وبناءً على ما سبق فإن الفخر الرازي يعد من أكثر المفسرين اعتداداً بالعقل واعتماداً على النقاش والجدل، وانتهاجاً لإستراتيجية الإقناع، وليس ذلك بالأمر الغريب وقد عاش في عصر حجاجي ازدهر فيه علم الكلام، فكثرت الفرق الكلامية واحتدم الخلاف المذهبي والعقائدي.

وعليه يمكن الخلوص إلى أنّ التفسير بالعقل عموما يعجّ بالتقنيات الحجاجية، فالفكرة تحتاج إلى فكرة أخرى تدعمها وتقويها، ومن تلك التفاسير تفسير "الزمخشري" و"البيضاوي"، و"النسفي"، و"الألوسي"، و"أبي حيان التوحيدي" وغيرها من التفاسير.

كما لم تخل التفاسير الحديثة من الرؤى التداولية العميقة، وخاصة الحجاج. "فابن عاشور" على سبيل المثال ينطلق في خطابه التفسيري من اللغة، وغرضه الوصول إلى ما وراء اللغة، كما ينطلق ممّا ظاهره إخبار وغرضه الوصول إلى ما وراء الإخبار وهو الإقناع والتأثير؛ فيقارب الخطاب القرآني بمجموعة من التقنيات الحجاجية، إذ يتوقف حينا عند الروابط النصية، إيمانا منه بدورها الحجاجي ووظيفتها التدرجيّة، ويتوقف حينا آخر عند الآليات البلاغية، فيقارب المعنى عن طريق بيان الوظيفة الحجاجية للصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، وطوراً آخر يقارب معاني القرآن الكريم عن طريق الآليات شبه المنطقية، ولعل أبرزها السلّم الحجاجي وأدواته اللغوية، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

– مقاربة المعنى عن طريق العناية بالروابط النصية (واو العطف، وإذ الظرفية، والفاء الرابط لجواب الشرط) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾ الأحقاف١١، حيث يقول: «ومعنى الآية: وإذ لم تحصل هدايتهم بالقرآن فيما مضى فسيستمرون على أن يقولوا هو "إفك قديم"»[1] ،ثم يردف هذا بقوله: «فليس المقصود إخبار الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بأنّهم "سيقولون هذا" و لم يقولوه في الماضي إذ ليس لهذا الإخبار طائل»[2]، ثم يضيف على سبيل المحاججة معللاً: «وإنما انتظمت الجملة هكذا لإفادة الخصوصيات البلاغية، فالواو للعطف، والمعطوف في معنى الشرط، والفاء لجواب الشرط، وأصل الكلام: "وسيقولون هذا إفك قديم إذ لم يهتدوا به"»[3].

– وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ الأحقاف١٣، يقول: «ثم للتراخي الرتبي: وهو الارتقاء والتدرج، فإنّ مراعاة الاستقامة أشقّ من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرر مراقبة النفس»[4]. ويضيف: «ودخول الفاء على خبر الموصول وهو "فلا خوف عليهم" لمعاملة الموصول معاملة الشرط، كأنه قيل: إن قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم فأفاد تسبب ذلك في أمنهم من الخوف والحزن»[5].

[1] – ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج26، ص 23.
[2] – ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج26، ص ن.
[3] – المرجع نفسه، ج26، ص ن.
[4] – نفسه، ج ن، ص 28.
[5] – نفسه، ج ن، ص ن.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

– مقاربة المعنى عن طريق الآليات البلاغية وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ **الأحقاف،21**، يقول "ابن عاشور": «والإمام حقيقته الشيء الذي يجعله العامل مقياسا لعمل شيء آخر، ويطلق إطلاقا شائعا على القدوة (...) وأصل هذا الإطلاق استعارة صارت بمنزلة الحقيقة»[1]، ثم يردف ذلك بقوله: «والرحمة اسم مصدر لصفة الراحم ووصف الكتاب بها استعارة لكونه سبباً في نفع المتبعين لما تضمنه من أسباب الخير في الدّنيا والآخرة»[2].

– وفي مقاربة المعنى من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ **محمد: ٤٢**، يستعين "ابن عاشور" بمجموعة من التقنيات الحجاجية، فيظهر حجاجية الفعل الكلامي المباشر وهو الاستفهام، ومعناه غير المباشر وهو التعجيب، ثم يعمد إلى إبراز حجاجية الرابط (أم) الذي أفاد الإضراب الانتقالي، والمعنى بل على قلوبهم أقفال، وفي الأخير يظهر حجاجية الاستعارة المكنية «إذ شبهت القلوب أي العقول في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصناديق المغلقة والأقفال تخييل كالأظفار للمدينة»[3]. ويضيف بعد ذلك أن في هذه الاستعارة تعريض يقول: «أما في إضافة أقفال إلى ضمير "قلوب" نظم بديع يشير إلى اختصاص تلك الأقفال بتلك القلوب دلالة على قساوتها»[4].

يتضح مما سبق أنّ اهتمام ابن عاشور بالأدوات اللغوية والآليات البلاغية في مقاربة معاني القرآن الكريم إنما يدل على نزعته الحجاجية في الإقناع بخطابه التفسيري

[1] – نفسه، ج ن، ص 24.
[2] – نفسه، ج ن، ص 25.
[3] – ينظر: نفسه، ج ن، ص 114.
[4] – ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج26، ص 114.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

الذي سلك فيه مسلك الاستدلال والاستنباط والاحتجاج، فتراه شارحاً ومعلّلاً ومستدلا ومحاججاً ومبرهنا، كلّ ذلك من أجل دراسة لغة القرآن الكريم في الاستعمال، والوقوف السليم على المقاصد الخفية لخطاب الشارع الحكيم. واجتهاد الرجل على هذا الوجه، أو على تلك الوجوه التي لم يكن من السهل حصرها – للضرورة المنهجية – يكشف في حقيقة الأمر عن أصالة التراث التفسيري وعمق تجربة علمائنا، وإحاطتهم بكل ما له علاقة بالكلام خطاباً ونصا.

الخاتمـــة:

إن أبرز ما يمكن استخلاصه من خلال البحث في البعد التداولي عند المفسرين ما يلي:

✓ يلتقي علم التفسير مع التداولية في أغلب مقولاتها، وبذلك كثرت نقاط التلاقي والتقاطع بينهما، إذ يتقاطعان في الغرض، وهو طلب الإبانة والوضوح، والكشف عن المقاصد الخفية ويتقاطعان في الآليات التي توصل إلى ذلك الغرض.

✓ بقدر ما تتعالق التداولية مع مجموعة من العلوم لتنهل منها يتعالق علم التفسير هو الآخر مع علوم عدة من أجل الوصول إلى المعنى.

✓ إذا كانت التداولية هي دراسة أكثر مما يقال من خلال الإحاطة بالسياق الخارجي، فإن الخطاب التفسيري عند أغلب المفسرين ارتكز ارتكازا قويا على عنصر السياق من خلال البحث في أسباب النزول، والبحث في المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، فضلا عن استحضار العادات الاجتماعية وقوانين العرب في كلامها.

✓ ينطلق علماء التداولية من اللغة للبحث فيما وراء اللغة، وكذلك انطلق علماء التفسير من المستويات اللغوية معجما وصرفا ونحوا ودلالة من أجل التأويل والوصول إلى مقاصد الخطاب القرآني.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

✓ وإذا كانت التداولية هي نظرية لإنجاز الأشياء بالكلمات في إطار مجموعة من قوانين الخطاب فإن علم التفسير قد كان له السبق المعرفي في ذلك من خلال عنايته الفائقة بالأغراض البلاغية للخبر والإنشاء، لأن القول في القرآن الكريم أمرا أو نهيا أو استفهاما هو توجيه إلى الفعل وتعديل للسلوك.

✓ اهتم علم التفسير بالعلاقات الموجودة بين المتكلم والمتلقي، وبوضعية إنتاج الملفوظ، وشروط التلفظ، وكذا بطرق استمالة المتلقي والتأثير فيه، فاستوجب ذلك أن يحضر الحجاج في الخطاب التفسيري بكل تقنياته، لأن الغاية القصوى من تحليل الخطاب القرآني هو الوصول بالمتلقي إلى الإذعان والاقتناع، وذلك هو المسلك التي سلكه الحجاج التداولي في إطار ما عرف بالبلاغة الجديدة.

✓ وعليه فمن الأمر اليسير للباحث العربي أن يلحظ ذلك الحضور المكثف لمفاهيم اللسانيات التداولية الغربية المعاصرة في مدونات التفسير رغم الاختلاف الإبستيمولوجي بين الحضارتين ورغم اختلاف المنطلقات والمعطيات والغايات، وهو الأمر الذي يمهد لتأسيس نظرية تداولية عربية البذور والجذور، ذلك لأن الحضارة العربية حضارة إجرائية تطبيقية، في حين انطلق العلماء الغربيون انطلاقة نظرية.

أهم التوصيات:

بناء على نتائج هذا البحث، وتجنبا لاستنساخ النظريات اللسانية الغربية، وإسقاطها على النص العربي رغم تمايز الألسن البشرية، أرى أنّه من الضروري العودة إلى التراث العربي بمختلف صنوفه، وإعادة قراءته قراءة معرفية على ضوء علم اللغة الحديث، وذلك من أجل الكشف عن تداولية عربية أصيلة وعميقة، من شأنها أن تغني الباحث العربي عن الذوبان في بوتقة حضارة غربية بروحها وجسدها عن مبادئنا وقيمنا.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

وليس الغرض بهذه العودة المعرفية إلى التراث العربي البحث عن جذور اللسانيات التداولية المتأصلة في مختلف صنوفه، بقدر ما هي عودة منهجية من أجل إيجاد البديل الأصيل الذي يتواءم وخصوصية اللسان العربي بعيدا عن صدام الحضارات.

كما أن هذا التلاقي العجيب بين علوم العرب ومعارفهم وبين اللسانيات التداولية الغربية المعاصرة يطرح أكثر من تساؤل، ويدعو إلى البحث عن الأسباب والخلفيات.

قائمة المصادر والمراجع:

- **المصادر:**

1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم: **مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،1436هـ.

2- تقي الدين أحمد عبد الحليم (بن تيمية): مقدمة في أصول التفسير، كلية الشريعة، جامعة دمشق ط1، 1972م.

3- أبو زيد (الثعالبي): الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوّض، عادل أحمد الموجود دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ، 1997م، ج2.

4- محمد حسين (الذهبي): التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط7، 2000م، ج1.

5- محمد (الرازي) فخر الدين: تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1981م، ج6.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

6- بدر الدين محمد بن عبد الله (الزركشي): البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، د. ط ، د. س، ج1.

7- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (الزمخشري): حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوّض، مكتبة العبيكات، الرياض السعودية ط1، 1998م، ج3.

8- ساعد سليمان طيار: فصول في أصول التفسير، دار النشر الدولي، الرياض، ط1، 1993م.

9- جلال الدين (السيوطي): الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط1 1429هـ، 2008م، ج2.

10- (السيوطي): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تح: عبد الله بن عبد الحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية، القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ–2003م.

11- محمد الأمين (الشنقيطي): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، د ط، د س، ج3.

12- محمد بن جرير (الطبري): جامع البيان على تأويل آي القرآن، تح: عبد الله عبد المحسن تركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2001م، ج11.

13- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، 1984م، ج1.

14- محمد صالح (العثيمين): أصول التفسير، المكتبة الإسلامية، عين الشمس المشرقية، ط1، 2001م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

15- ابن عطية (الأندلسي): المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ – 2001م، ج4.

16- (القرطبي): الجامع لأحكام القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، 2006م، ج1 .

17- ابن كثير القريشي: تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، ط2، 1999م، مج7.

18- ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، مصر، القاهرة، د ط ، د س، مادة (فسر).

- **المراجـــع:**

1- أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللّسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 2001م.

2- إدريس مقبول: الأسس الإبستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سبويه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2006م.

3- باتريك شارودو – دومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، تونس، د– ط، 2008م.

4- بومنقاش الرحموني: الضوابط التداولية للنص الديني – التفسير أنموذجا – مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، المغرب، د ط، د س.

5- جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة الباحثين من الجامعات التونسية، دار سيناترا، تونس، د– ط، 2010م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد:01 السنة:2020 الصفحة: 592–629 تاريخ النشر:05–08–2020

6- جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1 2010م.

7- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2012م.

8- شفيقة طوبال، استراتيجيات الخطاب في القرآن الكريم، مقاربة تداولية في خطاب أولي العزم من الرسل، رسالة ماجستير، تخصص: لسانيات عامة (مخطوط)، إشراف: عيسى لحيلح، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الصديق بن يحيى، جيجل، الجزائر، 2016م.

9- فليب بروتون، جيل جوتيه: تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية، ط1، 1432هـ، 2011م.

10- م روزنتال، ب يودين: الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطبيعة، بيروت، لبنان، ط1 1974م.

11- محمد أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، جامعة الأسكندرية، مصر، د ط، 2002م.

12- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م.

13- محمود حسين الجاسم: أثر السياق الخارجي في توجيه الدلالة التركيبية لدى مفسري القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات، وآدابها، العدد الثاني عشر، ربيع الآخر، 1435هـ – 2013م.